

(غموض نشأة الشعر العربي)

مقدمة

يعد البحث في بدايات الشعر الجاهلي من القضايا الشائكة؛ التي لا يمكن الوصول من خلالها إلى نقطة انطلاق لهذا الشعر، بسبب عدم وجود وثائق تثبت ذلك مهما كان نوعها؛ لذا تواجه كل من يتصدى لدراسة شعر ما قبل الإسلام صعوبة بالغة حين يحاول تصور البداية الأولى التي انطلق منها هذا الشعر وتطور.

إن لفظة (الأولية) التي استخدمها القدماء، إنما هي الأصل والنشأة والطفولة معاً، فهي قد احتوت المراحل كلها.

إن الباحثين لم يهتدوا إلى الآن إلى نص يستطيعون أن يقرروا أنه افتتاحية الشعر العربي، بل إن الكيفية التي بدأ بها هذا الشعر، يحيطها ظلام كثيف أيضاً، فابن سالم مثلاً يرجح ضياع الشعر الأولى؛ لانتشار الأمية، وعدم الضبط بالتنوين.

*آراء بعض النقاد

يرى الدكتور محمد أحمد الحوفي في مؤلفه (الحياة العربية في الشعر الجاهلي) أنه من العبث أن نحاول الكشف عن بداعه هذا الشعر؛ لأنها توارت وراء حقب زمنية طويلة، ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقرر أن أقدم شعر مما وصل إلينا قبل الإسلام بنحو مائتي سنة على الأكثر، وهو شعر مقصّد مطول، لا يمكن أن يمثل طفولة الشعر، لما فيه من نضج في الأسلوب، والموسيقا، والمعنى، والتصوير

أما الأستاذ طه أحمد إبراهيم، فيقول: لم يكن طفرة أن يهتمي العربي لوحدة الروي في القصيدة، ولا لوحدة حركة الرّوي، ولا للتصرّيف في أولها، ولا لافتتاحها بالنسيب والوقوف على الأطلال، لم يكن طفرة أن يعرف العربي كل تلك الأصول الشعرية في القصيدة، وإنما عرف ذلك كله بعد تجارب، وبعد إصلاح وتهذيب.

يُعلل النقاد السبب المباشر في عدم اكتشاف طفولة الشعر الجاهلي، هو الرواية الشفوية للأدب الجاهلي؛ حيث تعرض قسم كبير منه للنسيان والإهمال ، كما أن الرّسول نهى عن رواية أنواع معينة من الشعر، فضلاً عن النكبات التي حدثت في الجزيرة العربية، فلا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوي في صورته الجاهلية غامضة، وخلاصة ما

نذهب إليه أن طلائع هذا الشعر ضاعت لعدم التدوين، وأن المعلقات هي النموذج المتظور للنتاج الشعري في الجاهلية، وأهم الأدلة على ذلك:

• اكتمال الموسيقا الشعرية على هذا الوجه المبدع في المعلقات، بل إن هذه الموسيقية المنتظمة، تؤكد أنها ثمرة مجهودات طويلة متطرفة.

• أقوال أصحاب المعلقات أنفسهم، وهي باقية في أشعارهم موضحة أنهم سُبّقوا بشعراء كثيرين، فيقول أمرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لعنا نبكي الديار كما بكى ابن خدام

وهذا زهير يقول: ما ترانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً

فهذه الأقوال خير شاهد على أن شعراء المعلقات قد سُبّقوا بعدد كبير من الشعراء الجاهليين.

*النظرية القديمة والحديثة حول أولية الشعر

هناك نظريتان أساسيتان، تحاولان تصور الخطوة الأولى التي بدأ بها الشعر حركته على طريقه الفني الطويل؛ نظرية قديمة: ذهب إليها **النُّقاد العرب القدماء**، منذ عصر التدوين، ونظرية حديثة يذهب إليها بعض المستشرقين

أما النظرية القديمة، فتذهب إلى أن الشعر العربي بدأ رحلته في صورة مقطوعات قصيرة يرتجلها الشاعر في مناسبات طارئة؛ ليعبر بها عن انطباعات سريعة، ثم أخذ الشعراء يطيلون في مقطوعاتهم، حتى تكاملت لهم القصيدة في صورتها المعروفة على يد المهلل أيام حرب البسوس، وهي نظرية سجلها ابن سالم في مقدمة كتابه (طبقات فحول الشعراء)، وتابعه فيها ابن قتيبة في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء).

وأما النظرية الحديثة، فتذهب إلى أن **الرَّجُز** كان الصورة الأولى التي بدأ بها الشعر العربي رحلته، ويؤيد ذلك أن هذا الوزن الشعري هو الصورة الموسيقية الشعبية؛ التي كانت تتردد على ألسنة المجتمع العربي القديم، في كل مجالات الحياة، وربما كانت هذه النَّظرية، هي التي نستطيع أن نرى فيها أساساً صالحًا لحل المشكلة .

*رأي القدماء (أولية زمنية)

• إن القصيدة الجاهلية بناء متماضك، يكشف عن عقريمة أدبية، ومع ذلك فإن القدماء تمسكوا بقول ابن سلام الجمي: (إن المهلل بن ربيعة هو أول من قصد القصائد، وذكر الواقع)، ولكن لا يجب القطع بهذا القول؛ حيث يبدو إن العصبية القبلية هي التي دفعتهم إلى هذا الاختلاف والاضطراب، فادَّعَتْ كل قبيلة لشاعرها أنه الأول، ادَّعَتْ ذلك اليمانية لامرئ القيس، وبينو أسد لعبد بن الأبرص، وتغلب لمهلل.

• ويرى الدارسون القدماء. معتمدين على قول الجاحظ. أن العصر الأدبي المعروف لا يمتد إلى أكثر من مائتي عام على أقصى تقدير، يقول الجاحظ: «أَمَا الشِّعْرُ، فَحَدِيثُ الْمَيْلَادِ صَغِيرُ السِّنِّ، أَوْلُ مَنْ نَهَّجَ سَبِيلَهُ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ امْرُؤُ الْقَيْسُ بْنُ حَبْرٍ، وَمَهْلَلُ بْنُ رَبِيعَةَ»

فالجاحظ يحدد الفترة الزمنية لأقدم النصوص الجاهلية؛ حيث رأى أنها تبدأ مع ظهور المهلل وامرئ القيس، وتنتهي بظهور الإسلام، وكأنه لا يستطيع أن يمد بداية العصر قبل ذلك؛ لأنَّه لا يجد قبل هذين الشاعرين من المادة الفنية ما يساعدُه على تحديد البداية، لقد حاول القديماء أن يؤرخوا لبداية الشعر مع عصري امرئ القيس ومهلل ابن ربيعة، كما فعل الجاحظ، غير أنَّ المحدثين رفضوا هذا الرأي؛ لأنَّ استواء الشكل الفني لهذا الشعر، يثبتان أن هناك مراحل أكثر تقدماً سبقت عصر امرئ القيس ومهلل.

• أما عن رأي الدكتور يوسف خليف، فيقول: «ومعنى هذا أن العصر الجاهلي الأدبي يبدأ قبل الإسلام بقرن ونصف قرن، أو على أبعد تقدير بقرنين من الزَّمان؛ وهو تاريخ يعود بنا إلى حدث ضخم شهدته الجزيرة العربية، وهو حرب البسوس؛ التي دارت رحاها بين قبيلتي بكر وتغلب، والتي استمرت . فيما يقال . أربعين سنة. وفي أغلبظن أن هذه الحرب هي التي شهدت نضوج الشعر الجاهلي، فقد أظهرت جماعة من الشعراء، نهضوا بفن الشعر نهضة قوية، والمعروف أن المهلل بن ربيعة بطل هذه الحرب؛ هو الرائد الأول الذي أعطى القصيدة العربية صورتها المعروفة، وأخرجها من نطاق المقطوعة إلى نطاق القصيدة الطويلة. وأخيراً ليس من اليسير أن نتصور هذه البداية المكتملة الناضجة، هي البداية الأولى للشعر الجاهلي، وإنما لابد أن تكون قد سبقتها محاولات كثيرة، قام بها الرؤاد الأوائل من الشعراء الجاهليين القدماء .